الفصل السادس
الكتب والمكتبات في الإمبراطورية الرومانية

يعدُّ تاريخ الكتب والمكتبات في الإمبراطورية الرومانية امتداداً لتاريخها لدى اليونان. ذلك أن الرومان تأثروا، في جميع نواحي حياتهم، بالحضارة اليونانية وتمثلوها وتبنوها. وقد كان ذلك واضحاً في حقل الكتب والمكتبات كل الوضوح. فقد شابهت المكتبات الرومانية في أسلوبها وتنظيمها وغاياتها وأهدافها مثيلاتها اليونانية كل المماثلة، وكانت تقليداً أميناً لها، حتى أن قواد روما كانوا يجلبون معهم إلى روما المخطوطات اليونانية كقسم من الغنائم التي يحوزونها.

وللرومان فضل نشر الحضارة والمدنية اليونانية في أوروبا كلها. ذلك أن الجيوش الرومانية توسعت تدريجياً منذ أوائل القرن الثالث ق.م في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي أوروبا الغربية كلها، ولم تمض هذه القرون الثلاثة حتى جعل الرومان البحر الأبيض بحيرة رومانية وأضافوا إلى ذلك فرنسا الحالية وقسماً من إنكلترا وقسماً من ألمانيا، بالإضافة إلى البلقان بكامله ونشروا السلام الروماني، وأسسوا أكبر إمبراطورية عرفت حتى ذلك الحين.

لا يوجد إلا معلومات قليلة غامضة عن عدد من مجموعات الكتب وجدت في روما قبل القرن الأول ق.م، ولعل أهمها ما يسمى باسم «**الحوليات الكهنوتية**» والتي يقال إن عددها يصل إلى ثمانين مجلداً ووجدت حوالي سنة ١٢٠ ق.م، وهي مجرد حوليات تقص ما حدث في عهد الجمهورية وكانت مودعة في مقر كاهن الديانة الأكبر. كذلك وجد ما يسمى باسم «**كتب الحكام**» التي تسجل تواريخ الحكام وأعمالهم عبر العصور، وقد سجل بعضها على نسيج ولذلك سميت باسم «**كتب النسيج**». وقد ألحق بمعابد قدماء الرومان مدارس تخريج الكهنة وألحق بها مجموعة من الكتب ذات الطابع الديني ووضعت في مكان مقدس من المعبد.

وتعد المكتبة التي امتلكها بولوس اميليوس أول مكتبة رومانية مهمة لدينا عنها معلومات

موثوقة. ذلك أن هذا القائد الروماني الذي حارب ملك مكدونية بيرسوس وهزمه واحتل عاصمته كان محباً للعلم ولذلك أخذ هو من الغنيمة مكتبة الملك ونقلها إلى روما وهناك عرضها في مكان خاص في بيته.

ولقد دشن هذا القائد بعمله عهداً من عهود سلب الكتب والمكتبات ونقلها إلى روما، إذ أصبح من المعتاد والمتعارف عليه لدى قواد الرومان أن يحضروا إلى روما مكتبات الملوك والمهزومين كجزء من الغنيمة. ولعل أشهر مجموعة من الكتب أحضرها قائد روماني إلى روما بعد فتوحه هي مجموعة الكتب التي احضرها سولا Sulla القائد الروماني الذي احتل أثينا سنة ٨٦ ق.م. وقد اشتملت هذه المكتبة على عدة مجموعات من الكتب أهمها مجموعة كتب أبيليكون Apelicon من توس، وهي شهيرة لأن قسماً كبيراً من مكتبة أرسطو الخاصة كان ضمن محتوياتها. ويبدو أن سولا فتح المكتبة لأصدقائه من العلماء، ولم تعمر هذه المكتبة طويلاً بعد وفاة سولا، إذ اختفت ولا ندري مصيرها ولا الذي حدث لها بعد عام ٥٥ ق.م.

ولقد حذا حذو سولا أغلب القواد الذين أتوا بعده وأغنوا روما بمكتبات مسروقة من المقاطعات المحتلة، وإن كانوا هم أنفسهم جهلة شبه أميين، وإنما فعلوا ذلك تفاخراً وحتى يقال إن القائد الفلاني عنده مكتبة جيدة وهو يحب العلم والعلماء.

ولقد أصبحت المكتبات الخاصة شائعة في روما في حدود سنة ٥٠ ق.م. ولكن لم يكن يوجد مكتبة عامة. ولقد خطط يوليوس قيصر لتأسيس مكتبة عامة في روما تنافس أو تبزّ مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وقد كلف فارو Varro (١١٦-٢٧ق.م) بمهمة تأسيس هذه المكتبة، ولكن قيصر اغتيل سنة ٤٤ ق.م قبل أن يتمكن من أن يضع موضع التنفيذ الخطط الرامية إلى إيجاد مكتبة عامة.

ولقد تأخر تنفيذ هذا المشروع بعض الوقت وكان ثمرة من ثمرات الحروب الكثيرة التي شنتها روما على أعدائها، وثمرة من ثمرات سرقة الكتب من البلاد المفتوحة. فقد تمكن القائد بوليو Pollio من احتلال دالماشيا وضمها إلى الإمبراطورية، وكالعادة رجع إلى روما مثقلاً بالغنائم، ومن جملتها مجموعة ضخمة غنية من الكتب. وقد وضع هذا القائد هذه الكتب في «معبد الحرية» القائم على تل الأفانيتين Aventine وأضاف إليها إضافات مهمة من الكتب. وكانت المحفوظات العامة موجودة سابقاً في معبد الحرية، وأعاد بوليو

تنظيم المجموعتين وفتح أبواب المكتبة للجمهور، وكان ذلك أول مكتبة عامة في روما، وتم ذلك سنة ٣٧ ق.م.

ولقد أسس الإمبراطورية الرومانية أوغسطس، ومن عهده حتى أواخر عهد الإمبراطورية أخذ الأباطرة المتعاقبون على عاتقهم مهمة إيجاد المكتبات العامة في روما وعدّ ذلك إحدى مهامهم، فقد أسس أوغسطس في روما مكتبتين عامتين وضعت الأولى في معبد «الإله أبولو» وقسمت إلى قسمين متكافئين : مجموعة لاتينية ومجموعة يونانية. ولقد اعتنى بها الأباطرة المتعاقبون مثل تبيريوس وكاليغولا، وتضررت بالحرائق عدة مرات ولكن كان يعاد تصليحها وترمم من جديد وظلت في الوجود حتى القرن الرابع ميلادي. وألحقت الثانية بالمبنى الفخم الذي بناه الإمبراطور تخليداً لذكرى أخته أوكتافيا وأسماه بورتيكوس أوكتافيا. ولقد ظلت هذه المكتبة حية حتى القرن الثاني ق.م.

ولقد تابع خلفاء أوغسطس تقليده هذا وأسسوا المكتبات كما فعل تبيريوس ومن بعده قسبسيان Vespasian الذي أسس مكتبة عامة في روما سنة ٧٥م وزينها بالغنائم التي غنمها من القدس بعد أن فتحها وقمع ثورة اليهود فيها ودمر المعبد وجلب محتوياته إلى روما.

ولعل أعظم المكتبات الرومانية شأناً وأهمية هي تلك المكتبة التي أسسها الإمبراطور تراجان Trajan سنة ١١٤م واسمها المكتبة الأولمبية Ulpian Library أسس الإمبراطور مكتبته هذه في الساحة التي تحمل اسمه في روما وقسم محتوياتها إلى قسمين يوناني ولاتيني. ولقد ظلت هذه المكتبة حية حتى سنة ٤٥٥م عندما نسمع أن أحد الأباطرة أمر بوضع تمثال نصفي فيها لأحد العلماء. ولقد استمرت عادة تأسيس المكتبات في روما مدى العصور حتى يقال أنه وجد في روما وحدها ثمانية وعشرون مكتبة عامة قبل القرن الرابع الميلادي.

ولقد انتشرت المكتبات الخاصة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وقد وجدت المكتبات الخاصة لدى الرومان منذ عهد مبكر جداً. ويبدو أن الغالبية العظمى من مؤلفي الرومان كان تحت تصرفهم مجموعات غنية ومنظمة من الكتب استمدوا منها معلوماتهم، ويبدو ذلك واضحاً من مؤلفاتهم، كما نجد إشارات هنا وهناك إلى مثل ذلك. وهناك أدلة وبراهين تثبت إنه وجد عدد من أرباب المهن الراقية كالأطباء والمحامين جمعوا مكتبات خاصة بهم ذات حجم كبير وأهمية عظمى. فقد ورد ذكر المكتبة والكتب في رسائل

شيشرون لأصدقائه، وكان يدعو مكتبته روح البيت. وكان أتيكوس، صديق شيشرون، جماعاً للكتب ودلالاً لها ويتعاطى تجارتها وكان يمارس نوعاً من نشر الكتب، إذ كان عنده عدد من العبيد ينسخون نسخاً كثيرة من الكتب المطلوبة. وقدر عدد كتبه بأكثر من ٢٠ ألف مجلد. ولقد فاقت المكتبة التي جمعها سيرينيوس مكتبة أتيكوس ذلك أن سيرينيوس كان مؤلفاً وتاجر كتب عاش في القرن الثالث ميلادي فقد قدر أن عدد كتب مكتبته الخاصة بلغ ستين ألف مجلد.

ولقد انتشرت عادة تأسيس مكتبة في البيت لدى الأغنياء، من أجل التباهي والتفاخر على الرغم من أن صاحب البيت قد يكون جاهلاً أو أمياً أو منصرفاً عن المطالعة إلى الألعاب الرياضية والصيد...

هذا ولم تكن مدينة روما هي الوحيدة من مدن الأمبراطورية التي حفلت بالمكتبات. ذلك أنه بالرغم من أن روما القديمة صادرت ألوف الكتب الموجودة في عدد كبير من مكتبات البلدان التي احتلتها وأخضعتها لسلطانها وأغنت بها مكتباتها، إلا أنها في العصور المتأخرة عكست الوضع السابق وأصبحت روما هي نفسها المركز الرئيس لتوزيع الكتب ونشرها في أرجاء الامبراطورية. وعلاوة على ذلك فقد ساعد محبو الكتب ومشجعوها على تأسيس مكتبات كثيرة في عدد كبير من مدن الأمبراطورية. ولقد أسست الحكومة الإمبراطورية مكتبات كثيرة وخاصة في المقاطعات التي ضمت إلى الأمبراطورية حديثاً، وذلك في محاولة من تلك الحكومة في صبغ تلك المناطق بالصبغة اللاتينية.

فقد أسس عدد كبير من المكتبات في كثير من مدن إيطاليا نفسها كما في مدن كومو وتورتونا وميلانو وغيرها. كذلك أسس الرومان مكتبات كثيرة في المدن اليونانية مثل أثينا وكورنث ودلفى وغيرها . والشيء نفسه صحيح في آسيا الصغرى وسوريا ومصر وشمالي أفريقيا.

وقد وصلتنا بقايا بعض المكتبات التي أسسها الرومان في عدد من المراكز، وهي مهمة كل الأهمية لأنها تعطينا صورة واضحة عن المكتبة الرومانية وبنائها ومحتوياتها وتنظيمها.

فقد أسس أحد كبار موظفي الدولة في أثينا مكتبة ووقفها على شرف الأمبراطور تراجان وذلك حوالي سنة ١٠٠ م وقد اكتشف موقع المكتبة سنة ١٩٣٣م ووجد نقش على أحد جدرانها يذكر اسم الواقف الذي «بنى من أمواله الخاصة البناء الخارجي والمكتبة

مع كتبها وجميع النقوش والتزيينات الموجودة في البناء».

كذلك أسس الرومان في شمالي أفريقيا (الجزائر الحالية) مستعمرة سكنية في تمجاد. وقد أوصى أحد أغنياء الرومان أن يبنى بأمواله بعد موته مكتبة في تمجاد. وقد تم ذلك. وقد اكتشفت حديثاً خرائب هذه المكتبة، وهذا يمكننا من معرفة مخطط مكتبات الأقاليم الرومانية. تقدر مساحتها بحوالي ٨٠ قدماً من كل جانب وحولها أروقة معمدة، وكان هناك مركز للتوزيع والإعارة على شكل طاولة وراءها طاقة في الجدار. ووجد تمثال «للآلهة منيرفا» في وسط المكان. وكان هناك غرف على جوانب الساحة تخدم إما غرف مطالعة أو غرف درس ومحاضرات. وقدر أن سعة المكتبة الكلية هي ٢٣ ألف مجلد ووجد في مصر بقايا مكتبات في عدد من المراكز وفيها عدد كبير من الكتب المصنوعة من البردي، بعضها بشكل الملف وبعضها بشكل الكراس. ومحتويات هذه المكتبات متنوعة فيها الأدب والدين والرسائل الشخصية والحكومية والوثائق..

وتعد المكتبة التي اكتشفت في هيركولانوم في إيطاليا مهمة، لأنها اكتشفت في مكانها نفسه دون تغيير، كما وأن جميع محتوياتها مؤلفة من ملفات البردي والرقوق. لقد دمر هذه المدينة ثوران بركان فيزوف سنة ٧٠م وغطاها بطبقة كثيفة جداً من الرماد والحمم. وقد تم الكشف عن المدينة في القرن الثامن عشر وعثر بين أنقاضها على مكتبة خاصة تحوي ٣٥٠ ملفاً. وأغلب هذه الملفات لغتها يونانية، والباقي باللاتينية. وكانت ملفات البردى موضوعة في علب خشبية. وتوحي بقايا الملفات الممزقة إلى أن عدد ملفات المكتبة كان في حدود ٣٠٠٠ ملف. وكانت المكتبة موجودة في غرفة أبعادها ٣٠ × ١٥ قدماً. وأغلب الكتب فلسفي.

كذلك اكتشف في فلسطين سنة ١٩٤٧م في خربة قمران غربي البحر الميت مكتبة عامة أطلق عليها اسم ملفات البحر الميت. فقد استقر في تلك المنطقة من فلسطين جالية يهودية بين سنتي ١٢٥ ق.م و٧٠م. وقد أنتجوا عدداً من الأعمال الكتابية وأغلبها عبارة عن ملفات بردي، ويوجد بينها بعض الكتب التي كتبت على صحائف رقيقة من النحاس. وقدر عدد الملفات بأكثر من ٦٠٠ ملف، وأغلبها ذو محتوى ديني. ووجد فيها عدد من إصحاحات العهد القديم ومجموعة من الترانيم وكتب صلوات وعبادة. وقد وجدت وجوه شبه كثيرة بين محتويات ملفات خربة قمران الدينية وبين كتابات أوائل المسيحيين.

لقد بدأت تنحط في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية مكتبات العالم القديم الكبرى، ولكن، في الوقت نفسه، بدأت تزدهر المكتبات المسيحية. وقد استخدم أوائل المسيحيين الكتب والمكتبات بحكمة ووضعوا كتبهم الدينية قرب المذبح في كنائسهم وحرسوها جيداً. فقد تأسس عدد من المكتبات المسيحية في كل من القدس وقيصرية والإسكندرية في القرنين الثاني والثالث ميلاديين.

ولقد حاول الإمبراطور ديو كليشيان سنة ٣٠٣م أن يستأصل المسيحية ولكنه عجز عن تحقيق ذلك. ولقد تعزز مركز المكتبات المسيحية في الإمبراطورية الرومانية كثيراً وذلك عندما اعترفت الإمبراطورية في عهد قسطنطين الكبير(توفي سنة ٣٣٧م) بالمسيحية ديانة من الديانات الرئيسية في الإمبراطورية، وأدى ذلك بالتالي إلى تأسيس عدد كبير من الكنائس التي ألحق بها مكتبات دينية. وكان المسيحيون يحفظون كتبهم الدينية في كنائسهم على يمين المذبح. واستعمل أوائل المسيحيين الرقوق مادة لكتابة كتبهم واتخذوا شكل الكتاب الكراس، وربما فعلوا ذلك ليميزوا أنفسهم عن الوثنيين.

وعند بحثنا الشروط العامة للمكتبات الرومانية نلاحظ أن الغالبية العظمى للمكتبات العامة كانت ملحقة بالمعابد، وكانت تحوي محفوظات المعبد وسجلات الحكومة والأعمال الدينية، إلى جانب الأدب والفلسفة وغيرها. وكانت تقسم مجموعة الكتب فيها إلى قسمين؛ يوناني ولاتيني، إلى جانب المحفوظات. وأغلبها كان يزود بالأروقة المعمدة التي كانت مكاناً جيداً للمطالعة والدرس، وكان بعضها يزود بغرف للمطالعة. وجرت العادة أن ينصب تمثال نصفي لأحد الآلهة (مثل أبولو) في منتصف المكتبة. وكانت الكتب توضع على الرفوف، ولم تكن تعير إعارة خارجية إلا لبعض ذوي النفوذ والسلطان .

لقد كان طول ملف البردي الروماني المتوسط بين عشرين وثلاثين قدماً، وعرضه بين عشر واثنتي عشرة بوصة. وكان الملف يغلف بقطعة قماش ويربط بخيط. وكانت مكتبة المعبد المتوسطة تحوي في العادة عدداً من الملفات يتراوح بين ٣٠ ألفاً و ٤٠ ألفاً.

وكان أقدم المكتبيين الرومانيين عبيداً أو أسرى حرب مثقفين أُتي بهم من بلاد اليونان أو آسيا الصغرى. ولكن مع تقدم الزمن أصبح أمين المكتبة شخصاً وطنياً، وهو عالم في بعض الأحيان وله مؤلفات.

ويبدو أنه قد تم في عهد الأباطرة إيجاد منصب المشرف الأعلى على المكتبات في روما

حيث وضعت تحت إشرافه مكتبات مدينة روما العامة. وقد شغل هذا المنصب أشخاص باحثون وعلماء على مر العصور . وكان لكل مكتبة من مكتبات روما أمينها العام الذي يعمل تحت إشراف المشرف الأعلى على المكتبات. وبشكل عام كان منصب مدير المكتبة أو أمينها في الإمبراطورية الرومانية أقل أهمية من المنصب نفسه في كل من الإسكندرية وبرغامم. كذلك وجد تجار كتب في روما كانت مهمتهم نسخ الكتب وبيعها للجمهور، وهم يشبهون الناشرين الآن. وكانت المكتبات العامة تنسخ ما تحتاجه من كتب وقلما تلجأ لشراء الكتب المنسوخة.

كانت مجموعات الكتب في المكتبات الرومانية تقسم إلى قسمين كبيرين حسب اللغة: يوناني وروماني، وكانت ترتب الكتب ضمن اللغة حسب الموضوعات، وإن كنا غير متأكدين من أقسام هذه الموضوعات. وكان هناك نوعان من الفهارس، الأول فهرس مصنف حسب ترتيب الكتب على الرفوف. والثاني : نوع من فهرس بيبليوغرافي باسم المؤلف يذكر فيه اسم المؤلف وعنوان الكتاب والسطر الأول منه وطول الملف.

ومما له علاقة بالمكتبات والكتب الرقابة على محتوياتها. فقد راقب أوائل الأباطرة الكتابات المسيحية الأولى ومنعوها من التداول وحظروا وجودها في المكتبات. ولما دار الزمان دورته وأصبح المسيحيون في مركز القوة في القرن الرابع مارسوا نفس الدور واضطهدوا الكتابات الوثنية ودمروا محتويات كثير من المكتبات. وكانت تحوي روائع الأدب الكلاسيكي اليوناني الروماني الذي ظهر حتى ذلك الزمن.

ولقد زالت معظم المؤسسات عبر العصور؛ فبعضها زال بتأثير الزلازل والحرائق والنيران، على حين زال بعضها الآخر بتأثير الحروب الداخلية والخارجية. كذلك قضى التعصب الديني على قسم كبير جداً من هذا التراث مما جعلنا نفقد أعمالاً كثيرة جداً لا نعرف عنها إلا اسمها.

ولا شك أن انتشار الأمية بين سكان الإمبراطورية قد ساهم إلى حد كبير جداً في إهمال هذه المكتبات، وبالتالي اندثارها. فقد كتب مارسيليوس حوالي سنة ٣٧٨م يقول: إن مكتبات روما أشبه ما تكون بالمقابر وأغلبها مغلق أبوابه.

تجارة الكتب والناشرون في الإمبراطورية الرومانية :

بعد أن بسط الرومان سيادتهم على أغلب أقسام العالم المعروف آنذاك وبعد أن وحدوا

أقاليم البحر الأبيض المتوسط تحت نظام سياسي واحد، ظهرت لديهم تجارة نشطة في عالم الكتب قامت على أكتاف مهاجرين يونان، كما نشط نسخ كتابات أعلام المؤلفين الإغريق.

وظهرت طبقة الناشرين الذين استخدموا عبيداً مدربين لعملية النسخ، ولم يعد باستطاعة المؤلف أن يتصل مباشرة بالجمهور الذي كثر عدده وتباعدت أماكنه . ويعد إتيكوس صديق شيشرون أول ناشر وصل إلينا اسمه، وقد تكفل بنفقات نشر مؤلفات شيشرون، ولكنه لم يدفع أتعاباً للمؤلف. وظل المؤلف حراً في التعاقد مع ناشرين آخرين لإنتاج نسخ أخرى من نفس كتابه. كما كان الناس أحراراً في شراء نسخة واستنساخها. ولم يكن هناك تشريع يحمي الملكية الأدبية.

ودرج الناشرون على أن يقرؤوا قراءة علنية أمام نخبة من أصدقاء المؤلف فقراً منتخبة من كتاب جديد للمؤلف، وذلك لإثارة الاهتمام به. ولكن ما لبثت هذه العادة أن تطورت بشكل سيئ إذ استغلها صغار الناشرين وصغار المؤلفين لقراءة مؤلفاتهم في الاجتماعات العامة.

وكان لابد للناشرين من ثقافة عامة أدبية شخصية تساعدهم في عملهم، لأن على الناشر أن يراقب عمل النساخ الذين يعملون لديه، حتى تظهر النسخ خالية من الأخطاء، إلى جانب قدرته في الحكم على الأعمال التي تعرض عليه لنشرها. وأما أسعار الكتب فليس لدينا معلومات دقيقة في هذا المجال، وإن يكن من المعروف أن الأسعار تتناسب مع حجم الكتب ومظهرها. وكان لدى أثرياء الرومان الذين عندهم مكتبات خاصة عبيد ينسخون لهم الكتب التي يريدونها. ولا جدال في أنه قد وجدت آنذاك نسخ قيمة وملفات فاخرة ذات أثمان عالية، وخاصة ما كان منها حاوياً لمخطوطات مكتوبة بخط يد مشاهير المؤلفين والتي تهافت عليها هواة جمع الكتب من الرومان.

تطور الكتابة :

ازدهر الأدب اللاتيني في القرن الثاني الميلادي بشكل ملحوظ، كما بدأ ظهور نوع جديد من الكتابة الخاصة بالمخطوطات تختلف عن الكتابة السريعة العادية، وهي الظاهرة نفسها التي حدثت في بلاد اليونان .

ولقد اتصفت هذه الكتابة اللاتينية في عهودها الأولى بانعدام المرونة، كما كانت

مثيلتها الإغريقية من قبل. واحتوت مثلها على حروف كبيرة. وأقدم أشكال هذه الكتابة، وهو الكتابة الكبيرة Capitale وجدت مكتوبة بها البردية التي اكتشفت في هيركولانوم، وهي كتابة كبيرة ذات أحرف حادة وزوايا قائمة متعددة، في حين أن الكتابات المتأخرة منها والمعروفة باسم الحروف الدائرية Onciales تمتاز بأنها أكثر عرضاً واستدارة. وبلغت الكتابة اللاتينية أقصى تطور لها منذ القرن الرابع الميلادي، حيث ثبتت على حالها ـ ككتابة خاصة بالمخطوطات ـ إلى نهاية القرن الثامن ـ وفي هذين النوعين من الكتابة بعض الاختصارات، كما كانت الحال عليه في الكتابة الإغريقية .

obeikandl.com